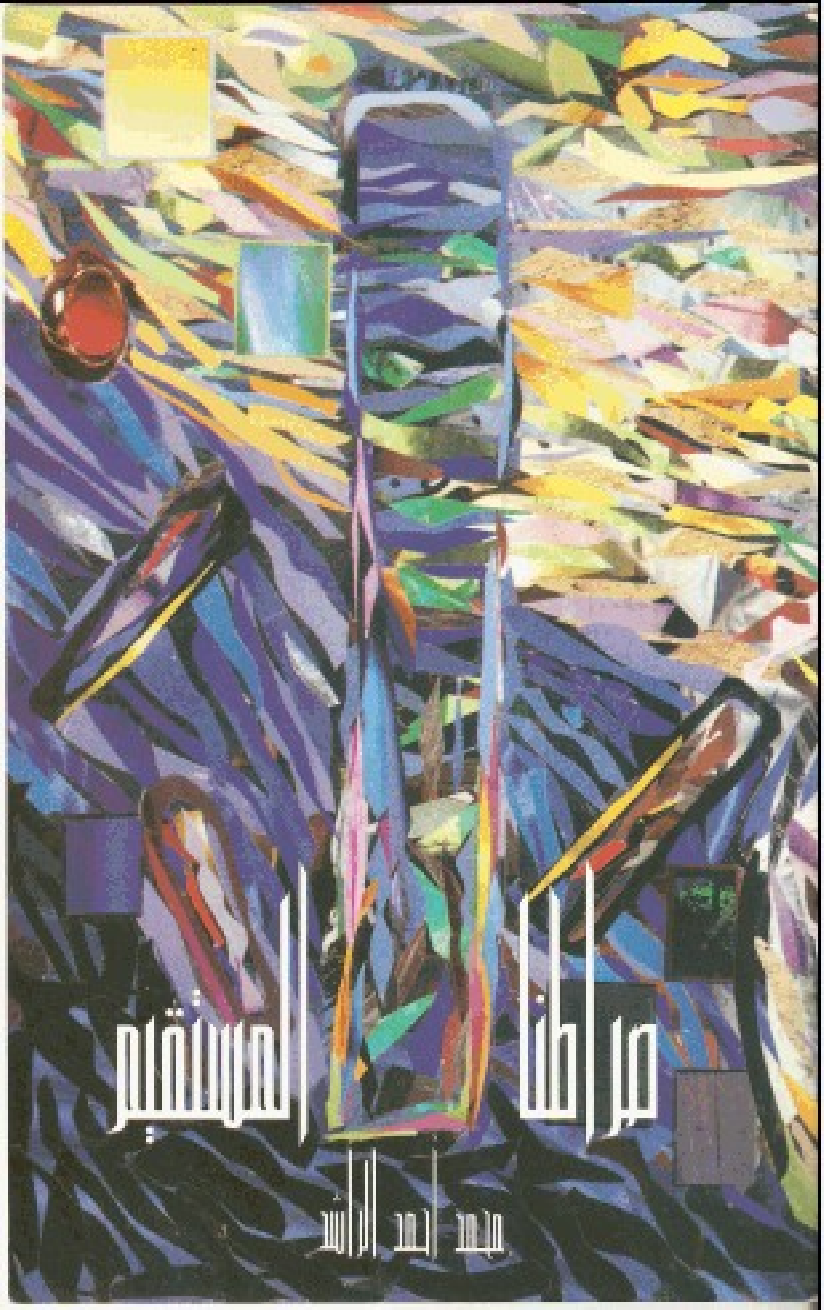


صراطنا المستقيم
محمد أحمد الراشد

مواعظ داعية

في .... محراب ملهم

- سجدتي أخبتتْ قلبي . .. . ومحرابي حوّاني
- نقتها. . . . . وجرّبتُ المعاني
- فاستلهمتُ عند الركن فهمي. . . . . وأبعاد كياني
- كل قواي. . . . وآمالي . . . . وعلومي . . . . والمباني
- فعزمت أن . . . . أصدح . . . .
- يقظاً. . . . . أرقبُ في عُمق محرابي الوميض. . . . .
- ومبشراً بينابيع معرفة . . . . و وعي . . . .
- ومنذراً محذراً من ترفٍ يزحف . . . . وغفلةٍ تدبّ
- أهمس بالخاطرة الإيمانية . . . . ومعها شاهدُها الشعري
- وأروي تجربة السلف. . . . . ومعها دليلها التوثيقي
- وأستل فقه الأئمة. . . . . ودقاق الموازين
- وأمزج كل ذلك بتأملات المُحْدَثين . . . .
- وافتح باباً لتجديدٍ . . . . وفن . . . . وإبداع
- بلغةٍ سهلةٍ. . . . . .لها حول البلاغةِ مَدار
- في أُسلوب تنويعي . . . . أضحى مذهبا
- فكانت هذه السلسلة الوعظية الأخلاقية المصافحة لفقه الدعوة. . . .
- التي قد تكون سبعين حلقة صغيرة . . . . أو أكثر إن شاء الله
- وقدُ صممّتُ بمعايير تجعلها . . . المتن الوعظي المنهجي العصري
- مكملة لتهذيب المدارج. . . . . وإحياء الإحياء
- وليقتني المربي نُسختها ويضعها في يد أخيه الصاعد .. . . تباعا
- فتغنيه عن شرح . . . . وتتدرج به في معرفة الخبر
- وتهز قلبه . . . . وتبذر فيه الولاء
- فإن يَسأل . . . . ففي المحراب ينتظر الدعاة

١ صراطنا المستقيم



لله الذي علا بقهره فوق جميع مخلوقاته وارتفع .
وأوجد جميع الكائنات بقدرته واخترع .
راحم من انطرح بين يديه وخضع .
ما توفيقي ولا اعتصامي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أُنيب .

وأشهد أن الله لا ربَّ غيرَه
كريمٌ رحيمٌ يُرتجى ويؤمَّلُ
قريبٌ مُجيبٌ يستجيب لمن دعا
جوادٌ إذا أعطى العطا يتجزَّلُ
يَمنحُ من الإحسان سحا على الورى
وَهوبٌ جوادٌ محسنٌ متفضِّلُ
لهُ تُرفعُ الأعمال في كل لحظةٍ
بأيدي كرام كاتبينَ وتُحملُ
عليه اعتمادي واتكالي ورغبتي
وإصلاحُ شأني مجمل ومفصلُ [١] .

لكني أُدرك ، وأدعو أخي الداعية أن يُدرك معي : أن المعاني الإيمانية التي تحملها مثل هذه الأبيات الجميلة **ينبغي أن تتعدى الطربَ الهاجمَ الذي يحرك القلبَ حين يتغنى بها اللسان** ، وأن يتجاوز نشوة إحساس المسلم بأنواع من اللذة حين يكتشف عبوديته لله تعالى ونعمته عليه إذ جعله في زُمرة المهتدين : أن يتعدى ذلك **إلى توكل دائم على هذا الرب الوهاب الكريم** ، بحيث يعتمد عليه في إصلاح شأنه كله ، (مجملٌ ومفصلٌ) ، كما أرشده هذا الشاعر المستقيم على درب الفطرة ، بما يقتضيه ذلك من الاستسلام الكامل ، وتفريغ قلبه وأعماقه العميقة من شائبة صغيرة ربما تربّصت فرصة غفلة فاحتلّت زاوية صغيرة خفية خلفية من ساحة نفسه ، وأصبحت تغريه من موضعها المستتر أن يأمل شيئا من بَشَر .

---

(١) الاستهلال وهذه الأبيات من عقود اللؤلؤ والمرجان للشيخ إبراهيم القصيمي ٩/١٢٠ .

كلا ..... بل ما يشاء الله تعالى هو الذي يحصل فقط ، ويلزم اليقين بأن شأنه المفصّل ، كالمجمل ، ليس غير الله يُصلحه ويرمّم خلله ويكفيه ويقويه ويضعه في الموضع الذي يأمله كعبد له فطرة تدعوه إلى إشباع حاجته وشهواته ، و إلى تمول وتملكٍ وتكاثر ، وإلى تنافس وسطوة وتمكين .

وأوسع خطوة يمكن أن يختصر بها المسلم طريقه لحيازة هذا الإحساس الإيماني اللازم : **أن يتفهم مكانته كوريث لآدم عليه السلام في خلافته التي اختارها الله له ، وفرصته كمستعمر للأرض .**

هذا الفهم للوظيفة البشرية الدائمة هو **الفهم الإيجابي الوحيد لطبيعة الحياة** ، وهو الذي يُتيح ـ دون غيره ـ رؤية حقيقة الحياة وأنها كانت بقدر ، ُخلقتْ بهذا القدَر ، ومازالت مستمرة به .

وللمؤمن أن يتعجّب مع الشيخ إبراهيم آل عبد المحسن القصيمي رحمه الله حين تعجّب فتساءل أن : (كم لله من ُلطف وحكمة في إهباط آدم إلى الأرض!! لولا نزوله لما ظهر جهاد المجاهدين ، ولا حصل اجتهاد المجتهدين ، ولا صعدت زفرات أنفاس التائبين ، ولا نزلت قطراتُ دموع المذنبين .) [٢] .

فآدم لم يُهبط وحيدا ، إنما ُأهبط معه شيطان أيضا ، يُغوي ويُضل ، فحمى الله عبادَه برسل ووحي وكتب وقرآن ، فإذا هو صراع دائم ، وللبشر الخيار : أين يكون الانحياز وإلى أيّ الفريقين يكون الانتساب؟.

ُخلق البشر وفيهم الصالح والطالح ، وهم على درجات من الإيمان ، وأوجد الله في هذا المخلوق المطامع ، كما أوجد فيه احتمالات التوبة والتذلل والأوبة ، لذلك حصلت الاختلافات بين البشر .

لذلك يلزم أن ينتدب أهل الإيمان أنفسهم لتصحيح خطأ الفاجر فيكون عمل الجهاد .

إنه صراع بين الحق والباطل أنقسم به الناس إلى صنفين : حزب الله ، وحزب الطاغوت والضلالة والفجور ، فيكون التحدي ، فتكون الدرجات من التقرّب إلى الله سبحانه .

وهكذا يكون خيار الموفقين الجهاد ، لأن هناك مَن يعتدي ويظلم ويسلب الحقوق ويستضعف بعض العباد .

---

(٢) عقود اللؤلؤ /٦٣ .

وكان الخيار الاجتهاد ، لأن الوطيسَ في غاية الحماوة ، ولا تكفي المقاربة ، وليس ينفع إبطاء وتسويف ونصف تشغيل للحواس . وفي مجال الاجتهاد يتمايز الناس أيضاً ، فمنهم سابق بالخيرات ، ومنهم مقتصد . ومنهم المسرع ومن يسير الهوينى ، ولولا وجود الحياة الإنسانية بنزول آدم لما حصلت لذة الإسراع لمؤمن ، ولما قال موسى عليه السلام : { وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى } ، ولما قال الصحابي : " ركضا إلى الله بغير زاد " ، وفي التعبير القرآني تأكيد المعنى بقوله تعالى { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ } ، إذ الفرار لا يكون إلا في صورة التعجّل والهمّة العالية التي تمنح للاجتهاد معناه .

ثم كانت إفاقات التوابين ، وجوازم المتطهرين ، لأن بهرج الشهوة ليس له دوام ، وسرعان ما تتكشف عيوب الحرام ، فيؤوب العقلاء إذا أبصروا علامات الخطأ ، فيتغشاهم قلق مزعج لهم عما إذا كان رجوعهم مقبولاً لدى ربهم عز وجل ، الذي هو جبارٌ كما هو ودود ، ومنتقم مثلما هو عفوّ ، فتارة يترجح لديهم جانب عظمته ، فيأخذ الخوف بمجامع أفئدتهم ، وتارة يطمعون في رحمته التي سبقت غضبه ، فيشتاقون إلى جنته ، حتى يتركهم إحساس الحالتين **في أمل تزاحمه رهبة ، ورجاء لا يبرمه توكيد ، فتتفجّر دموع العيون** ، ويتواصل الأنين ، حتى كان أكثر موقف في الحياة مفعم بالعاطفة : منظر الذي يُذنب ، فيندم فيبكي البكاء المر ، خوفاً ، وشوقاً .

وتلك هي نبضات الحياة ، ودورانها بين جهاد واجتهاد وانشداد ، منذ يوم النزول الأول ، وحتى الزمن الآخِر .

ومعها وُلدت البلاغة . فللسيف صليل فصيح حين يمازج الصهيل ، وللتوجع أنات لا تستوعبها أصوات الحروف ، و للاجتهاد لغة فيها حفيف ، إذ يترادف العمل متصلاً متسلسلاً سريعاً ، كأنه نسمة تداعب الأغصان . فيها رفيف ، إذ تحلق الحركات صاعدة بأجنحةٍ في أسماء الهمم . وفيها دقٌ وقلقلة وإظهار وعصف وزمجرة ، إذ تحتدم معركة التحدي بين قلب كبير عنيد يريد المعروف ويبغي الإصلاح ، وهواجس سوء وجند شر وملأ المتبطرين ، فتتجمع من كل ذلك قطعة من الألحان هي التي سمّت نفسها : **بلاغة العمل** .

ولذلك لما (قيل لبعض الحكماء : ما البلاغة ؟ قال : ما بلّغك الجنة ، وعَدَل بك عن النار ، وبصرك مواقع رشدك وعواقب غيّك .) [٣] .

---

(٣) كتاب المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري ٣٠٩/١ ، تحقيق الدكتور عدنان عبد الرحمن القيسي .

فالبليغ في عمله : من أدرك أن الآخرة هي الحقيقة فسلك نحو نعيمها ، على بصيرة وتمييز لمواقع الأقدام ، فيمضي راشداً ، مفارقا من أختلط عليه الأمر ، ومن يهيم اعتباطاً ، تشتتَه أنواع الغي .

❑ الدغدغة النفسانية الفخرية

وضرورات التورية قد ألجأتْ أسلوبي في الكتابة إلى المجازيات ، ولم يكن لي باعث غير هذا ، ولكنْ من خلال الممارسة الطويلة وجدتُ لذة في ذلك ، ووجد القارىء مثلها فتواطأنا ، وكنتُ أحسب ذلك أمراً خاصاً ، حتى رأيتُ في كلام الأصوليين أن أحد دواعي التكلم بالمجاز هو : زيادة البيان . ووجدتُ الإمام الفخر الرازي ينص على أن من طبائع النفوس أنها (لو وقفت على تمام المقصود : لم يبق لها شوقٌ إليه أصلا ، لأن تحصيل الحاصل محال ، وإن لم تقف على شيء منه أصلاً : لم يحصل لها شوق إليه .

فأما إذا عَرَفته من بعض الوجوه دون البعض : فإن القدر المعلوم يُشوقها إلى تحصيل العلم بما ليس بمعلوم ، **فيحصل لها بسبب علمها بالقدْر الذي علمته لذة ، وبسبب حرمانها من الباقي ألم ، فتحصل هناك لذات وآلام متعاقبة ، واللذة إذا حصلت ُعقيبَ الألم كانت أقوى ، وشعور النفس بها أتم .**

إذا عرفت هذا فنقول : إذا ُعبّر عن الشيء باللفظ الدالّ عليه على سبيل الحقيقة : حصل كمال العلم به ، فلا تحصل اللذة القوية .

أما إذا ُعبّر عنها بلوازمها الخارجية : ُعرف لا على سبيل الكمال ، فتحصل الحالة المذكورة التي هي كَ " **الدغدغة النفسية** " ، فلأجل هذا : كان التعبير عن المعاني بالعبارات المجازية ألذ من التعبير عنها بالألفاظ الحقيقية .)[٤] .

ومن أجل ذلك ازددتُ إصراراً على الثبات على أسلوبي المجازي الذي لقي إقبالاً واستحساناً من شباب الصحوة .

وقد أعجبني تعبير { **الدغدغة النفسية** } الذي استعمله الرازي ، وبه اكتشفتُ نسبي اللغوي ، وعرفتُ أن لي سَلفاً في طرائق مَسِّ شغاف القلوب .

❑ فإن قعد بالمؤمن عن بلاغة العمل عجزٌ ، أو فقر ، أو ضرورة ، فإن بلاغة النية تكفيه ، وهي ناطقة أيضاً ، وستعرف فصاحته من أسارير وجهه ، واستبشاره ، وومضة عينه ، فتوقن أن وراء هذا الوجه الطلق عزائم خير .

---

(٤) المحصول في علم الأصول ٣٣٦/١ .

وهو المعنى الذي عرفه لبيد ، فيشترك به ، ويشتر معك في نفس رسالته الُمنفق الذي يدّخر دراهمه عند الله عامرة ، فقال :

وما البرُّ إلا مُضمراتٌ من الّتقى
وما المال إلا معمراتٌ ودائعُ

فالبرُّ تكفي فيه النية : أن تنوي أعمال التقوى .

أو البرّ في مذهب لبيد : عمل من التقوى أضمرته وأخفيته ، خوفا أن يمازجه رياء ، أو تعكره ُشهرة ، ولُمضيته سراً بينك وبين الله لا يعرفه بَشَر ، فكأنك ُحزتَ السعادة من أطرافها كلما ذكرته راجيا ، حتى ليكاد يرقص قلبك طربا لما وفقك الله إليه من خير تكتمه ، وليس أسعد منك غير مؤمن صنع معروفا فنسيه ، فعوّضه الله سكينة قلبية غامرة ، وملأ أعماقه ثقة وتوكلا .

إن بداية الإصلاح في الحياة في مذهب لبيد : إصلاح القلب .

فالُتقى المضمر عندك هو مادة التشغيل .

وإنْ أحسنتَ الصلة بينك وبين ربك : سلكَ أمُرك .

وذلك هو منهج الصالحين ، وهو الذي عليه التعويل .

على أن من لوازم هذه البلاغة الإيمانية : أن مَن يتكلم بها ُهم الأقحاح ، أهل الصفاء والدم النقي ، ولن يستطيعها ُممَزّج ، ولا غريب عن الديار ، ديار الإيمان ، بل أبدا تفضح هؤلاء الركاكة : { وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ } .

❑ الإتّباع الواعي أساس المنهج الإبداعي

لكن هذا البر العامر وإن ساغ في هوامشه وفروعه الاشتقاق والقياس ، والاختراع وتجديد المثال ، بحيث يبدع المؤمن عملاً طارفا لم يسبقه إليه أحد ، تكثيرا لأشكال المعروف ، وتفنّنا في التملق لربٍّ يُحب من عباده ابتكار الوسائل وتنويع المداخل إليه ، إلا أن جوامع هذا البر ُمحَدَّدة ، وُأصوله مسنونة في حلال بيّن ، ثم جاءت السِّيَر العملية لأجيال المؤمنين المتعاقبة تشرح وتفسر الأصول الجوامع ، وامتزج كل ذلك وترابط حتى أصبح منهجا واضحا فيصلاً ُفرقاناً بين هدى وضلال .

مبدؤه الطريق الإسلامي العدل السوي ، الذي صوّره النبي ﷺ **في لوحة تجريدية** لمّا خطّ خطاً مستقيما ، وخطّ خطوطاً مائلة عن جنبيه ، تائهة ليس لها وجهة ، ثم قرأ قول الله تعالى : { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ } .

فكانت لوحة الغلاف.....

فمن أرض الجاهلية المظلمة الحالكة يشرع الدرب الإيماني صاعدا ، فيمر في المحنة ولابد ، حيث النوافذ الداكنة ، لكنه يتطاول على طرق واهمة تناثرت من حوله ليس لها مخرج ، **ويظل يدأب في التحدي حتى يصل إلى حياة النور المتالق وألوان الخير** ونوافذ الخضرة والرؤية الواضحة ، التي تطل على تيار دائم متدفق ، ربما يلاقي عائقا ، فلا يتوقف ، إنما ينعطف فقط ليتيح لأهل الطريق المستقيم الرفل بأمنه وعطائه ، غير أنه لبذر خسيف زمن الشبهات والشكوك وقلق الموازين المادية ، لأنه ألفى رهطاً من عشاق الجنة لهم بصائر : **يُقدمون ثمن النقلة الحاسمة الواجب : نقطة ناصعة لها إطارها التأصيلي في فقه حركة الحياة** .... ثمّ عند أطراف تيار المباهج ...

وهذا هو الذي أنطقَ الرجلَ الصالح الذي عاش زمنا تشعّبت فيه الآراء ، وكثرت فيه الأحزاب ، وهاج الناس حيارى ، فاستولت على أولئك القوم فتن ، حتى ملّ الأصفياء ، فسألوه عن باب النجاة ، وقالوا له :

(أين المخرج ؟

قال : **في سلوك المنهج** .)[٥] .

فللمعروف تراكمات طويلة ، جعلها التقادم كتلة واحدة بعضها من بعض ، هي المنهج وفيها يكمن الصواب ، فلكل لاحق اقتداءٌ بسابق ، والخَلَف يقتفون أثر السلف والثقين ، ومن ثمّ كانت المخارج ضمن ساحاتهم الموروثة ، ومَن شذ : دخل المتاهة ، لا يبصر مخرجا ، وليس له أمل ، بل يدمّره القلق تدميرا ، ويظل مُحطّم النفس ، متعكرا ، ماله من قرار .

ألستَ ترى حكمة لفضيل ، زاد عليها سفيان ، وضرب أحمد لها مثلا ، ثم استنبط ابن تيمية لك منها فقها وعِللا ، وفصّلها تفصيلا !!

فذاك ومثله هو المنهج ، ليس التحرر من قول الأولين ، ولا اتباع فلتات ألسن الصالحين ، فضلاً عن شذوذ قول المجهولين والمتأخرين .

---

(٥) المجالسة ١/٢٩٥ .

ثم شعَر **الفقهاء لما ظهرت الحيصاتُ** ، يقودهم الشافعي عبر رسالته ، أن من تمام الحق الذي منحهم الإسلام إياه : **أن يأطروا الناسَ على الحق أطرا ، ويأسروهم إلى الصواب أسرا ، فوضعوا لهم " أصول الفقه " ثم قواعده** ، هي لصحيح النية توجيه وإرشاد ، يُعينونه بها على إدراك مراد الله تعالى ، وما يُحبه لعباده ويرتضيه ، ويحفظون اجتهاده إذا اجتهد ضمن ساحةِ حدّدوا إطارها وزواياها ، فيظل قريباً من المحسنين ، ثم هي لذي النية المشوبة رادع بحرمه سهولة التفلت من عُرف المؤمنين ، وبذلك استقامت هذه المنهجية ، وغدت أكثر وضوحا وأبعد أثرا ، وفيها تكمن المخارج من ورطات هذا الزمن المتأخر ، ومن فتن أحاطت بالمسلمين ، **وإن قوما اليوم لهم زهد بهذه الأصول ، ويظنون أن " المقاصد العامة للشريعة " هي بديل عنها مكافئ لها ، ونخشى أن يفتحوا بذلك باباً من تسويغ المكروهات ، وأن يؤسسوا نمطا جديداً من فقه** الرُخص يضمر معه حجم المندوبات في حياة المسلمين ، بل ربما الواجبات ، لأن المقاصد العامة إنما هي من المعاني التي يصعب تحديدها بشكل واضح جازم بمنع التأويل الخاطئ ، مثل العدل والمساواة ، فإنهما من مقاصد الشريعة العامة ، ويصلحان كقرينة للفقيه المجتهد ترجح ما تشهد له أصول الفقه من اجتهاده ، ليس أكثر ، ولا يصلحان بمجرد معنييهما أن يكونا مستنداً له إلا إذا صعب القياس وغمضت المصلحة ، بسبب مطاطية في المعنى ، وتعميم فيه ، وصعوبة تخصيص الدلالة ، ولربما رأى المجتهد عدلا في أمر ، فيفتي به ، ويراه غيره ظلما ، لاختلاف العقول ، وفي تخصيصات الأصول وما نتج عنها من التزام الإجماع والإستنسار لشروط القياس والنظر المصلحي احتياط يليق لرائد التقوى والسلامة ، وإلا كان على خطر ، وأراضي اليوم سبخة تغوص فيها الأقدام ، وزلقة تهوي بالمستعجل ، ومليئة بشوك يدمي ، وحفائر تُسبّب العثرات ، بل بمصائد واستدراجات ، **وثباتُ الخطوات الوئيدة أولى من الوثبات** .

❑ يؤاخيك ...... فتضمن المستشار المؤتمن

ثم استطردت حكمة لبيد ، فوصفتْ وصفتين تصلحان لتجويد التربية والتفقه معا ، وذلك حين جزم أنّ :

ماعاتبَ المرءَ الكريم كنفسهِ

والمرءُ يُصلحه الجليس الصالحُ

فالمؤمن **يخطأ ، بُحكم بشريّته ، لكن نفسه أوّابة ، سريعة الإفاقة ، ولن ترتكس في قاع الغفلة طويلا** ، ولسانها في عتاب صاحبها صريح ، لأن معاني النُبل التي تُشتق من الكرم تُعوّده على حياة عالية نظيفة هي في غاية الصفاء واللطف ، فإن هبط منها إلى مضيق يحيطه تلوّث وتبدلت بيئته الطاهرة بسبب زلةٍ زلّها أو غفلة لُهنيهةٍ : اضطربت أنفاسه واعترت صدرَه حشرجة ، كأنه مريض بربو ، فيقسر نفسه على الرجوع إلي المحيط النقي ليستعيد صحته ، فعتابه لنفسه دواء وإرشاد ، وتوجيه واستدراك ، وعتاب غيره له : توبيخ مجرد ، وتبكيت يجرح الهمّة ويؤذي الأحاسيس ، **ومن ثمّ يكون تولي الكريم تصحيح مساره أحد ُأصول التربية المهمة** .

من المستحيل أن تجد كريما لا يعاتب نفسه ، لذلك فإنه لا يحتاج إلى رقيب ووصي عليه ، بل هو مبادر .

فالرقابة على النفس أدل من وعظ الواعظين .

لكن قابلية الكريم على معالجة انحرافه ذاتيا تنعكس على نمطه في التفقه أيضا ، ذلك أن نفسه الشفافة تستقل عنه حين يحاول الاجتهاد ، وتحتل مكانة الرقابة عليه ، ألا يجنح به الهوى ، أو يلوذ بظاهر من القول ينفيه التعمق في الفهم ، أو يتهرب من قرائن تشهد بعكس ما يرغب ، وهنا تنفع " المقاصد الشرعية العامة " جدا ، وليس هناك ، إذ أنها تحرس الاستنباط من إغراب وشذوذ يؤديان إلى ضد ما أرادته هي من المسلمين ، وتجتمع مع حقائق العقيدة ، ثم مع جملة الأخلاق القلبية والعملية ، لتقوم ثلاثتها كلها بعملية تدقيق شامل على كل رأي جديد في مجال أحكام الحلال والحرام ينطق به متفقه ، إذ ينبغي أن يأتلف الاجتهاد معها جميعا ، بحيث **لا يؤذن لعمل أن يكون حلالاً لمسلم إذا زاحم جزيئة من حقائق عقيدة التوحيد ومقتضياتها** ، أو **إذا نحت شيئاً من مكارم الأخلاق** ، أو **اقتلع شظية من معاني القلوب** .

وفي وصفة لبيد الثانية عصمة ُأخرى ، فإن الجليس الصالح يعظ و ينبّه ، يحدوه وفاء الصداقة ويغريه أجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا تمنعه مداهنة ، ولا يقف به حياء ، **حتى غدا العيش الجماعي المشترك ُسنة ماضية في التربية الإيمانية** ، لما يتيحه ذلك من تبادل النُصح ، وتهادي الملاحظات ، والبوح بالمكتوم لخلّ ذي عقل وافر بشير بخير ، بدلاً من تصعيد الزفرات التي ليس ورائها طائل ، يعتادها المتوحد حين يسرح ذهنه فيتذكر

فُرصاً فائتة ، وموانع حارمة ، فتستهلكه الحسرات ، وليس له من أنيس يخفف أحزانه ويحلي له الصبر ويشرح له أوصاف القدَرَ .

فإذا كان الجليسان من رواد الفقه ، ومارسا ، وقدحا فكريهما ، وتسابقا في مضمار الاستنباط : قام كل منهما رقيباً على صاحبه أن يشتط ، ومُعيناً له إذا أعياه الأمر ، ومكملاً لجملته إذا تلعثم ، **حتى لكأنهما لسان واحد وقلب مشترك ، فإذا تضاعف التعاون الثنائي إلى أداء جماعي أوسع وحوار متكرر تحت سقيفة الأخوة : فإن الاجتهاد بلا شك يكون أدق وأصدق** ، وخلل رأي الواحد تصلحه آراء الجلساء الصالحين ، وهناك يكون الإبداع ، وثمّ تفرض الوسطية نفسها حلاً منطقياً بين متزمتٍ زادت صلابته درجة ، ومستجيب للضغوط انحدرتْ ليونته درجتين .

الجليس الصالح الواحد هو نعمة كبرى ، فكيف إذا كانت جماعة جُلساء ؟ سيكونون جميعا مظاهرين لك وسندا ، وهذا من أظهر النِعَم على العبد إذا أراد الله به خيراً .

والخير له عدوى ، كما أن للشر عدوى .

وانظر كيف تبدأ أحزاب السوء وتستولي على بلد !
تكون مناجاة بين القلائل ، فتكون عصابة تقوى وتستولي .
وكذلك **أمر الإيمان ، يبدأ بتكتّل أهل الخير** ، والأكثر بذلاً هو الذي سينتهي له الأمر ، المؤمن أو الفاجر ، ونحن الذين بيدنا أن نحيا الحياة العزيزة أو أن يستبد بنا فُسّاق من أبناء جلدتنا إذا دأبوا وانتظموا .

❑ مسكين ....عاقبه الله بالديسكو

ولما عرف الأتقياءُ هذه العطايا المجانية التي يمنحها الجلساء الصالحون : حرصوا على مزاملتهم وانتظار أنواع من الفوائد الخيرية منهم ، حتى صار من جملة دعائهم أن يسألوا الله تعالى الصاحبَ النقيَ الواعظ ، الذي يتطوع بالتذكير والترغيب والترهيب ، ليعادل فيهم آثار الدنيويات الغازية لهم في عُقر دارهم ، والغفلات التي تنزل بين ظهْرانيهم .

لكن المسكين الإمام مجاهد بن جبر المكي تلميذ ابن عباس ﷺ : أصابه سهو يوما من الأيام حين دعا يطلب الرفقة ، فذهل أن يسأل الله تعالى أن يكونوا صلحاء ، فأرسل له نفرا يشوشون عليه .

قال رحمه الله يروي محنته : (خرجتُ من واسط ، فسألت ربي أن يرزقني صحابةً ، ولم أشترط في دعائي ، فاستويتُ أنا وهم في السفينة ، فإذا هم أصحاب طنابير .)[٦] .

والطنابير من آلات الموسيقى الوترية مثل العود .

ولك أن تتصور الضجيج الذي أحاط به ، من بين نافخ ببوق ، وضارب لدفٍ ، وداقٍّ لطبل ، ثم ينبغ من بينهم ذو صوت منكر فيرتفع زعيقه ، وربما كانوا عن فن مقامات الألحان بمعزل ، وانتكس ذوقهم فملأوا ساعات هذا التابعي العابد الفقيه بإزعاج .

قدّر بحكمة الله تعالى أحاط بعبد من عباده لمجرد شرود ذهنه عن اشتراط صلاح الجليس ، فكيف بشباب اليوم الذين استبدت بهم الغفلة عن الدعاء أصلا ؟ بل ربما عن الصلاة !

أليس لنا أن نقول **إنها عقوبة ربانية أن يصاحب الشاب المسلم اليوم باختياره أصحاب الديسكو وأغاني الفلاش** التي هي أقبح ما ُنسب إلى الطرب زورا .

وقصة مجاهد تتركك بين خيارين :

أن تعلو ساميا ، وتزكو لك الأوقات ، بصحبة الأخيار ، ومجالسة الصالحين ، والحرص على الانتساب لرهطهم ، والاغتراف من منابع فضلهم وذرر علم قد يهدونها إليك ، وبلاغة يطربونك بها ، ورواية شعر يرقص له قلبك .

أو أن تنزل حائراً ، متنقلاً بين لغو ولهو مكروه أصبح سمة الفارغين.
لكن الدعاء يفيدك ويعينك .... إذا لم تنس الاشتراط !!

❑ نبني ، فنعلو ، .... ويسفل ، فيهدم ، فيهوي

وإذا راقبنا الحياة الاجتماعية عبر الأجيال مراقبة استقرائية دقيقة غايتها التعرّف على أنواع أخلاق الناس لوجدنا **أن اللهو إذا خرج عن حدّه المسموح به في ُعرف المؤمنين : فإنه يُصبح مدخلاً لانفلات واسع عريض** ، قد يكون سريعاً ، وربما يكون بطيئا ، تبعا لوجود عوامل مساعدة أو ناهية ، بحيث تشتهر حياة اللاهين بعدوان على الأعراض والأموال ، وبتقصير في حقوق الآباء والزوجات والأبناء ، وبضعف في المروءة والنخوة والشجاعة .

---

(٦) المجالسة ٣٩٦/١ .

وأقل مثل هذا العدوان : عدوان اللسان ، فكما أن من الشرك ما هو خفي لا يُدركه كثير من الذين يقعون فيه ، فإن من الأخلاق الرديئة ما هو خفي على مقترفها ، لتبلّد الحواس واختلال أداء القلب .

والهجاء ، وصرامة اللفظ : هما من أوضح الانحرافات في حياة مَن لا شغل له ، وقد ذكر ذلك الحكماء .

قال الأصمعي : (قيل للعجّاج : إنك لا تُحسنُ الهجاء . فقال : إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نَظلم ، وأحسابا تمنعنا من أن نُظلم ، وهل رأيت بانياً إلا وهو على الهدم أقدر منه على البناء ؟؟)[٧] .

وفي هذا ما يفسر ما تتعرض له الدعوة الإسلامية اليوم ، كما بالأمس ، من انتقاد جارح ، وتشهير ، وتُهم سوء ، وتزوير الحقائق ، وإقذاع إعلامي ، فإن من يفعل ذلك إنما هو مفتقد الأصالة والعقل السوي معاً ، فهذا الحكيم وقومه لم يتلوث لسانهم بهجاء الناس ، لأنهم يملكون الأحلام أولا ، وهي العقول التي أحالتها ممارسة الحكمة مُدة طويلة إلى عقول رفيعة بريئة من نوايا المنكر . ثم هي الأحساب ثانيا ، أي أنساب الشرف الموروثة وما فيها من أعراف خيرية تتراكم في العوائل والقبائل التي يحرص فيها الأجداد على نجابة الأحفاد ، واختيار الحرائر ليلدن الأحرار الذين لا يَظلمون ولا يُظلمون .

ولكي يبرهن لك هذا الحكيم على أنه يفعل ذلك اختياراً ، وترفعا عن الدنايا ، وليس عن عجز وقلة اقتدار على فعل السوء : وضع أمامك الدليل المنطقي الذي هو ظاهرة من ظواهر الحياة الإنسانية العامة فقال :

وهل رأيت بانياً إلا وهو على الهدم أقدر منه على البناء ؟

فهذه ملاحظة هي من الحق الجلي : أن **عملية البناء تحتاج إلى سلسلة متعاقبة من الأعمال الصعبة** : أولها النية ووضوح المقصد ، ثم العزم والهمة ، ثم التخطيط ، ثم رصد الجهد والمال ، والكدح ومواصلة التعب ، حتى يرتفع العمران سامقا ، وكل ذلك لا يأتيه إلا مقتدر ، وأما الهدم فهو تخريب ينتجه الطيش ، ويسهل على كل حائد عاجز .

لكن ولعنا : البناء ، وتشييد صروح الأخلاق ، وأسوار المروءة ، وعمائر الإيمان ، ولنا شغل خير يعصمنا ، وعفاف لن ينزل بنا إلى هجاء .

---

(٧) المجالسة ٤١٦/١ .

قال رحمه الله يروي محنته : (خرجتُ من واسط ، فسألت ربي أن يرزقني صحابةً ، ولم أشترط في دعائي ، فاستويتُ أنا وهم في السفينة ، فإذا هم أصحاب طنابير .)(٦) .

والطنابير من آلات الموسيقى الوترية مثل العود .

ولك أن تتصور الضجيج الذي أحاط به ، من بين نافخ ببوق ، وضارب لدُفٍّ ، وداقٍّ لطبل ، ثم ينبغ من بينهم ذو صوت منكر فيرتفع زعيقه ، وربما كانوا عن فن مقامات الألحان بمعزل ، وانتكس ذوقهم فملأوا ساعات هذا التابعي العابد الفقيه بإزعاج .

قدر بحكمة الله تعالي أحاط بعبد من عباده لمجرد شرود ذهنه عن اشتراط صلاح الجليس ، فكيف بشباب اليوم الذين استبدت بهم الغفلة عن الدعاء أصلا ؟ بل ربما عن الصلاة !

أليس لنا أن نقول **إنها عقوبة ربانية أن يصاحب الشاب المسلم اليوم باختياره أصحاب الديسكو وأغاني الفلاش** التي هي أقبح ما نُسب إلى الطرب زورا .

وقصة مجاهد تتركك بين خيارين :

أن تعلو ساميا ، وتزكو لك الأوقات ، بصحبة الأخيار ، ومجالسة الصالحين ، والحرص على الانتساب لرهطهم ، والاغتراف من منابع فضلهم وذرر علم قد يهدونها إليك ، وبلاغة يطربونك بها ، ورواية شعر يرقص له قلبك .

أو أن تنزل حائرا ، متنقلا بين لغو ولهو مكروه أصبح سمة الفارغين.

لكن الدعاء يقيدك ويعينك .... إذا لم تنس الاشتراط **!!**

❑ نبنيْ ، فنعلو ، .... ويسفل ، فيهدم ، فيهويْ

وإذا راقبنا الحياة الاجتماعية عبر الأجيال مراقبة استقرائية دقيقة غايتها التعرّف على أنواع أخلاق الناس لوجدنا **أن اللهو إذا خرج عن حدّه المسموح به في عُرف المؤمنين : فإنه يُصبح مدخلاً لانفلات واسع عريض** ، قد يكون سريعا ، وربما يكون بطيئا ، تبعا لوجود عوامل مساعدة أو ناهية ، بحيث تشتهر حياة اللاهين بعدوان على الأعراض والأموال ، وبتقصير في حقوق الآباء والزوجات والأبناء ، وبضعف في المروءة والنخوة والشجاعة .

---

(٦) المجالسة ١/٣٩٦ .

وأقل مثل هذا العدوان : عدوان اللسان ، فكما أن من الشرك ما هو خفي لا يُدركه كثير من الذين يقعون فيه ، فإن من الأخلاق الرديئة ما هو خفي على مقترفها ، لتبلد الحواس واختلال أداء القلب .

والهجاء ، وصرامة اللفظ : هما من أوضح الانحرافات في حياة مَن لا شغل له ، وقد ذكر ذلك الحكماء .

قال الأصمعي : (قيل للعجّاج : إنك لا تُحسنُ الهجاء . فقال : إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نَظلم ، ولحسابا تمنعنا من أن نُظلم ، وهل رأيت بانيا إلا وهو على الهدم أقدر منه على البناء ؟؟)[٧] .

وفي هذا ما يفسر ما تتعرض له الدعوة الإسلامية اليوم ، كما بالأمس ، من انتقاد جارح ، وتشهير ، وتُهم سوء ، وتزوير الحقائق ، وإقذاع إعلامي ، فإن من يفعل ذلك إنما هو مفتقد الأصالة والعقل السوي معاً ، فهذا الحكيم وقومه لم يتلوث لسانهم بهجاء الناس ، لأنهم يملكون الأحلام أولا ، وهي العقول التي أحالتها ممارسة الحكمة مُدة طويلة إلى عقول رفيعة بريئة من نوايا المنكر . ثم هي الأحساب ثانياً ، أي أنساب الشرف الموروثة وما فيها من أعراف خيرية تتراكم في العوائل والقبائل التي يحرص فيها الأجداد على نجابة الأحفاد ، واختيار الحرائر ليلدن الأحرار الذين لا يَظلمون ولا يُظلمون .

ولكي يبرهن لك هذا الحكيم على أنه يفعل ذلك اختيارا ، وترفعا عن الدنايا ، وليس عن عجز وقلة اقتدار على فعل السوء : وضع أمامك الدليل المنطقي الذي هو ظاهرة من ظواهر الحياة الإنسانية العامة فقال :

وهل رأيت بانيا إلا وهو على الهدم أقدر منه على البناء ؟

فهذه ملاحظة هي من الحق الجلي : أن **عملية البناء تحتاج إلى سلسلة متعاقبة من الأعمال الصعبة** : أولها النية و وضوح المقصد ، ثم العزم والهمة ، ثم التخطيط ، ثم رصد الجهد والمال ، والكدح ومواصلة التعب ، حتى يرتفع العمران سامقا ، وكل ذلك لا يأتيه إلا مقتدر ، وأما الهدم فهو تخريب ينتجه الطيش ، ويسهل على كل حاند عاجز .

لكن ولعنا : البناء ، وتشييد صروح الأخلاق ، وأسوار المروءة ، وعمائر الإيمان ، ولنا شغل خير يعصمنا ، وعفاف لن ينزل بنا إلى هجاء .

---

(٧) المجالسة ٤١٦/١ .

المؤمن يفهم أن وظيفته عنوانها : إصلاح الحياة ، فيوسع قلبه للمقصر والمبطئ والمخلط ومن عنده نوع من النقص ، ويذهب في الحلم بعيدا .

وأبنية الدعوة الإسلامية المعاصرة تشهد بحمد الله ، في كل قطر ، في القارات الخمس ، ووراء البحار السبعة ، ويتأكد فخرنا أننا في زمن كثر فيه الهادمون الفارغون .

إن هذه الحكمة تفسّر كيف أن فساقا لا يجيدون غير الهجاء ُهم الذين يتصدرون ، إذا توارى أهل العفاف ، ولكن أحساب الشرف تمنع الظلم أن يدوم ، بل تتنادى لتقويم الاعوجاج ، **والأصيل لا يخنع ولا يستكين ، وكل البلاد مليئة بالأصلاء ، ولكن ينقصهم تخطيط وتنسيق .**

❑ والمهاجر يستقصي المروءات

وإنما جاءت البراءة من الهجاء كمثل ، وإلا فإنّ لأخلاق المؤمن تنوّع كثير ، وكلها نتاج الأحلام و الأحساب ، حتى أن الفقيه ربيعة بن أبي عبد الرحمن المشهور بربيعة الرأي شعّبَ المروءة التي هي أصل رئيس في جوامع الأخلاق إلى شعبتين فقال :

(للسّفر مروءة ، وللحضَر مروءة .

فأما مروءة السفر : فبذل الزاد ، وقلة الخلاف على أصحابك ، وكثرة المزاح في غير مساخط الله عز وجل .

وأما مروءة الحَضَر : فإدمان الاختلاف إلى المسجد ، وكثرة الإخوان في الله تعالى ، وتلاوة القرآن .) [٨] .

والداعية الذي هاجر واغترب يجمع السفَر والحضَر ، فمروءته مروءتان .

وبذل الزاد عنوان مختصر لتعاون عريض يقتضيه السفر بين المتآخين في الله ، يشمل بذل كل ما يفتقر إليه المسافر معك من الحاجات الدنيوية ، فالمال والمكان كالطعام ، وكذا التعريف بفضله لدى من يجهله ، و الشفاعة له ، وتمكينه من قبول دراسي ، أو فرص مفيدة ، أو زيارة نبيل أو جلوس بين يدي عالم ، أو مشاهدة غرائب ما خلق الله ، أو نوادر ما اقترفت يد الإنسان من فن أو عمارة .

---

(٨) تفسير القرطبي ١٢٣/٥ ، والمجالسة ٢٩٩/١ .

وأما قلة الخلاف مع الأصحاب فهي من ضرورات السفر أيضا ، لأن النفوس تتفاوت ضيقاً وسعة ، وتتصادم الأذواق والأشواق ، وما لم يضع المسافر في حسابه أن يتنازل عن بعض رغباته لصالح الآخرين ، نصف له ، ونصف لهم : فإنّ الخلاف سيقع ، وقد عصم الله الدعاة من معظم ذلك بما درجوا عليه من تأمير أحدهم في السفر اتباعاً لسنة النبي ﷺ ، فيكون أمره واختياره هو الفيصل .

وبمقابل تقليل الخلاف : يسوغ تكثير المزاح في السفر ، وبذل الابتسام ، ورواية للطائف ، وتعمّد ما خفّ من الكلام وآنس وسلّى وأضحك وأطرب ، لأن السفر قطعة من العذاب ، وكله أتعاب ، ومن ثمّ كان ترويح النفس من المروءة ، وكان الاحتجاج إلى فن في ذلك ، يحفظ إيجابيات الأقران خلال وعثاء الطريق .

وعندي أن كثرة المزاح هنا عبارة عن النفس المستبشرة المتفائلة ، فأمرنا في السفر وفي أيام الهجرة لا يسعه عبوس واكفهرار وشكوى من الدنيا ومرارة الحياة ، ولربما يتلظى المهاجر على جمر الغُربة ، ويرى الصعوبات وقلة المال ، ولكنه يتجمل ولا يُظهر إلا الابتسام تشجيعاً لأصحابه أن يكونوا فوق مشاكل الغربة ، وهذه اكتشافات إنسانية وإيمانية كبيرة لمعاني المروءة وإن ظنها البعض وصايا عادية ، وهي من جملة حيثيات علم النفس الإسلامي .

وأما أخلاق الحاضرة : فأخلاق تجمعها العزائم ، وعلى رأسها الاختلاف إلى المسجد ، أي كثرة التردد عليه وحضور الجماعة والاجتهاد في إدراك تكبيرة الإحرام مع الإمام ، ثم التسبيح معه بعد السلام ، فإن ذلك باب نزول الرزق المادي ، من مال وحفظ زوجة وولد ، ورزق معنوي ، من سكينة قلبية غامرة ، وقناعة ، وعلم ، وحكمة ، وزوال هَمّ ، وطروء هِمّة ، في سلسلة تحفظ السمت العالي ، ثم تديم تلاوة" القرآن اليقظة" ، بما أودع الله في كلامه الشريف من بركات .

وهذه اليقظة الروحية ستقوده إلى مروءة ثالثة نصّ عليها ربيعة :

أيتها **تكثير الإخوان** في الله تعالى ، ليتقلّب في ربيع من المشاعر الجميلة يفتقدها غير المؤمن ، وهذه الإشارة استحالت في هذا العصر إلى أن تكون **مفتاح الخروج من معضلة الحَيرة والمتاهة التي عصرت جيل المسلمين**

الحالي الذي فتح عينه فجأة فوجد حقوقه مهضومة ، وحريته معدومة ، وقصص المجاهدين من آبائه منسية ، مع اضمحلال في الأخلاق ، وضحالة في الفكر ، وتخليط في النوايا ، وقبوع في الزوايا ، وليس من أمل في الاستدراك غير انتساب لعمل جماعي إسلامي ينتشل الأمة من الوهدة ، وينعشها بالوحدة .

❑ همومنا الإستدراكية

وهذه هي الهموم الشخصية وآلام العيش اليومي الصعب نكتمها ونصبر على اللأواء ، **أما هموم الأمة ومواساة جمهور المسلمين في نكباتهم فإن حملها هو صنعة الدعاة الرئيسة** ، وقد اختارنا الله تعالى لذلك بحكمته ، وكتب علينا الألم ، وبه يتمثل الخُلق الأول من سلسة أخلاق دعوية أُخرى نتحلى بها لتجميل أنفسنا وصقلها وتزيينها وإكسابها الهوية الخاصة المميزة لها عن هويات غيرنا اللا أُباليين ، أُولي الآذان الصمّ عن سماع الغصص الإفريقي ، والعويل البورمي ، والأنين القوقازي .

فذلك هو الذي أتاح لعلي بن الفتح رحمه الله في الزمن القديم أن يبتكر ابتكاره ، ويخترع مهنته ، لما خرج يوم عيد الأضحى فرأى الناس يُضحّون بضحاياهم ، وهو فقير لا دينار له ، ورأس ماله : علو الهمة ، فانتحى جانباً وقال :

(يا رب : وأنا تقربتُ إليك .... بأحزاني .)[٩] .

هكذا هو قدرنا .... نحن الدعاة .

الأحزان قرباننا .... والآلام نشيدنا .

ندير تجارتنا عبر مصرف يتقبل ودائع اللذعات ....

انتباهة .... فانتفاضة .... فتأمل .... فدراسة ....

فمشاركة ، فمعايشة ..... ونكون لكل منكوب : الظهير المنجد ، والناصر المغيث .

وهذا هو **الحزن الإيجابي** الذي لا يعرفه كثير من الناس ، واستقصينا نحن فنونه ، فما نزال بعد نعيش في رحاب لذائذه .

إجابة المظلوم ..... وتلقين الساذج .... وإيقاظ الراقد .... ورفد المجاهد ..... ومصافحة الناهض ..... وعمارة المحاريب ..... وستر

---

(٩) العاقبة للإشبيلي /٢٠٣ .

النجائب ..... كل ذلك مهنة المُقدَّمين رجال النفيضة ، ولأصحاب الطنابير ما وراء الساقة .

بل حتى المؤمن إن لم يكن داعية مغترفاً من خيرات مناهج الدعوة وطرائقها التربوية فإن نجدته للمسلمين تكون غير موزونة ، إنما يُسَيّرها الإعلام العالمي ، ويتحكم بها الوعي الناقص والفهم المنحاز .

وانظر مثلاً يشهد على ذلك : مأساة حلبجة الكردية حين وقعت أثناء الحرب العراقية الإيرانية ومات فيها أكثر من خمسة آلاف نفس من المدنيين الأبرياء بالغازات السامة في لحظات قلائل مرة واحدة .

كان هناك صاع من الخطأ الكردي ، لكنه رُدَّ بمائة صاع من العقاب ، لكن الدعايات العالمية و الإقليمية حاولت طمس الحادثة ، فلم يستجب لنداء الإغاثة أكثر المؤمنين ، فضلاً عن الفساق ، وكانوا سلبيين حين نفر الدعاة يطلبون الإغاثة ، ومررت بنفسي على عدد من تجار دبي الكبار ، فكانت أياديهم قصيرة ، لتخذيل رضعوه ، وكلامٍ زور غشّهم ، واختلاط موازين اكتنفهم ، وبقي بعض من نجا بملابسهم الملوثة بالغازات السامة ثلاثة أشهر يعانون ولا يستطيعون تغييرها ، لبرودة الطقس وانعدام البديل ، وفي هؤلاء من هو داعية أو ابن داعية أو بنت داعية ، لأن حلبجة معقل من معاقل الدعاة في الأرض .

❑ إمض بنا نصفق .... لنجدّد كبرياء الإيمان

مثل هذا يبدو أنه وقع في الزمن الأول أيضا ، فأوصى الأساتذة أن يكون في سلسلة الأخلاق : خُلق التكبر على الأغنياء !!
بل صرفوا معنى التواضع إلى هذا التكبر ، أنه هو بعينه.

روى أبوبكر الدِّيْنَوَري في كتاب المجالسة أنه (سُئل سفيان الثوري فقيل له : **ما التواضع ؟ قال التكبر على الأغنياء** .)[١٠] .

ونحن الدعاة أهل مؤاخاة لكل مسلم بحمد الله ، الغني منهم والفقير ، ولن نتكبر على أحد حسداً أو كراهة ، **ولكن لغة سفيان لغة دعوية خاصة ، ومعناها : أن نريهم العفاف ، والنفس الغنية** ، ونشعرهم بأننا لا نطمع بما في أيديهم ، بل نرنو إلى الآخرة .

---

(١٠) المجالسة ١/٣٧٧ .

ويبدو أن سفيان قد صدمه بطران فاضطره إلى هذه اللغة الغليظة ، تماما كالذي يجري معنا اليوم حين نزور أهل المال نستعطفهم ، ونخبرهم بوكالتنا عن المسلمين ، فنلمس تثاقلا ، لكن سفيان نطق، تسعفه مكانته ، ونخرس نحن.

غير أن أكبر التكبّر الواعي المحمود : هو التكبر الإيجابي ، كما كانت أحزاننا إيجابية ، وصورة ذلك أن ننزل إلى الأسواق ، نبيع ونشتري ، لنجمع المال ، لنكون أغنياء ، لنبذل هنا وهناك .

إن الخطأ الأكبر الذي وقعت فيه التربية الدعوية أنها علّمت الدعاة انتظار شعبان ورمضان ، ليجمعوا أوساخ الناس ، ليُنجدوا الأمصار المنكوبة .

وبئس هذا النمط .... !

بل في الإستقلال الرفعة ، وفي التجارة الحل .

أو أن يشاء الله اختصار طريقنا ، فيقذف في قلب غني واسع الثراء مثل المعاني التي نجد ، فيتكبر على ماله ، ويجاهده جهادا ، فيستل سيفه الفيصل المبارك ، فيضرب به أمواله ضربة موفقة ، فيشطرها شطرين ، ويضع شطر الله في أيادي دعاة الله الوعاة ، يعينهم على تنفيذ الخطط ، ليس لمساجد ومياتم فقط .

أوَ قد خلق الله هذا ..... ؟

أم نحن في أضغاث أحلام ..... !

وربنا المستعان على ما تستعجل به الأقلام .

❑ حوصِرنا .... لنفرّ إلى السوق

هي كذلك غضبة الحيران المحاصَر .

أما قواعد الإيمان فتدعونا إلى أن نتأول خيرا ، وأن نوقن أن منع الله كله عطاء ..... ! بحكمةٍ يراها ، إلى أوانٍ أرّخه للملائكة .

وهذا النوع من اليقين بعطاء المنع : خُلُق آخر واجب في سلسلة أخلاق الدعاة .

وكأني أعيش الماضي ، وأرى الثوري يُصَعِّد الزفرات ، بعدما أفتى بفتواه ، وهو فارغ الكف ، وطلاب العلوم من حوله ينتظرون ..... !

وبينا هو كذلك إذ جاءه أشعث أغبر من بطن الصحراء ، قد قذفت مناظر الرمال والجِمال والجبال والجَمال في نفسه معاني التوحيد ، وألهبت الشمس

الساطعة في قلبه حرارة اليقين ، فاستوى عنده يومه اليابس وأمسه الأخضر ، فساقه الله نحو الكوفة يُعلِّم الثوريَّ الإيمان .

قال أبوبكر الدينوري : قال أبو حبيب البدوي للثوري :
(يا سفيان : إن مَنعَ الله ُكلّه عطاءٌ ، لأنه لا يمنع من بُخلٍ ، ولكن نظراً واختباراً .) [11] .

وما حفظته الكتب من هذه الحكمة كله بقدَرَ ، كي نعظ أنفسنا بها كما اطمأنت نفس سفيان وهدأت بعد الثورة ، فكفار وفساق من حولنا تسيل لهم الأموال بلا حساب ، ونحاول فنخسر ، ويحجب الله عنا القليل ، لحكمة يراها ، وما هو ببخيل سبحانه بل يمينه طلقةٌ سحاء .

إذن .....فلأمر ٍ ما كان هذا المنع ..... !!
وعندي أنه منْعُ اختباري : يرى الله هل نتوكل فننزل للسوق نتاجر ؟
ولئن خوت صناديقنا وقفزت الأصفار شمالاً فإن لنا في الأعالي عند الله الرصيد ، نرجوه ، وهو العفوّ الوهّاب .

ولنا في موعظة عيسى عليه السلام سلوة وأسوة ، إذ وعظ أصحابه فقال :
(يا معشر الحواريين ..... **اجعلوا كنوزكم في السماء .**) [12] .
فصبرُنا على لأواء الحياة المعقدة الحاضرة ، وعلى الفقر في يوم حروب الاقتصاد وتصادمات الأموال : إنما ييسره علينا هذا الأمل بأن لنا في السموات العالية كنوزا ، فمن ثمّ لن نكسل عن أن نضيف لها ونضيف ، وندخر ونسعى ، فإنها هي الباقية ، وهي الحقيقة ، وكنوز الأرض الواطئة زائلة .... وزائفة .
كنوزنا لا تفنى ، بل الله يضاعف إلى سبعمائة ضعف وأكثر ، ونحن الأغنى بفضله ومنّه وكرمه .

❑ ثبات الإصلاح التحتي ..... وتأرجح الفلتات

مثل هذا الحال الحرج : يدفع الدعاة في كثير من الأحيان إلى أن يسلكوا **طريق الإصلاح من فوق** ، بأن تلهج ألسنتهم بدعاء وتضرّع إلى الله تعالى أن يرحم بلدهم بحاكم عادل يوفر عليهم المتاعب ، أو أن يساعدوا على تنصيب مثل هذا العادل ، أو أن يفرحوا به إن حبّاهم الله به دون جهد منهم ، أو سخر له توبة من تفريط .

---

(١١) المجالسة ٣٢٤/١ .
(١٢) المجالسة ١٣٠/١ .

وهذا النمط من التمني والفرح إنما هو من الحق ، وليس هو ببدعة ، وإن نَدَر الحكام الصالحون .

لكن طعنة الخنجر ونقطة السُم في القديم ، ورصاصة الاغتيال في الزمن المعاصر : سريعة إلى مثل هؤلاء ، **ثم ينتهي الحُلم الجميل ، ويعود الزمن العليل** ، وفي تجارب عمر بن عبد العزيز ، والواثق العباسي ، ويحيى بن هُبيرة الدوري الوزير ، ثم ضياء الحق ، وملك قبله : شواهد ، فإن لم يكن القتل : كان العزل ..... !

كالأمير الفِهْري الذي امتلأ رأفة ..... وحنانا .

أخرج أبوبكر الدِيْنوري عن الأصمعي قال :
(لما ولي عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفِهريُ المدينة : صعد المنبر ، فحمد الله و أثنى عليه ، ثم قال :
أيها الناس : لن تعدموا مني ثلاث خلال :
لا ' أجَمِّرُ' لكم جيشا ، وإن أمرتُ فيكم بخير : عَجّلته لكم ، أو بشَرٌ أخّرته عنكم ، ولا يكون بيني وبينكم حُجّاب .
فمكث عندهم كذلك . فلما عُزِل : صعد المنبر فبكى ، وبكى الناس لبكائه ، وقال :

والله ما أبكي جزَعا من العزل ، وضنّنا بالولاية، ولكني أربأ بهذه الوجوه أن يتبدلها بعدي مَن لا يرى لها من الحق ما كنتُ أراه ، و إني وإياكم يا معشر أولاد المهاجرين والأنصار لكما قال أخو كِنانة :

فما القيدُ أبكاني ، ولا السجن شقّني
ولكنني من خشية النار أجزعُ
بلى إن أقواما ً أخافُ عليهمُ
إذا مُتُ أن يعطوا الذي كنتُ أمنعُ .)[١٣] .

أي يعطوا الدنية في الدين . وجَمّرَ الجندَ : أي أبقاهم في ثغر العدو لم يأذن لهم في الرجوع إلى أهليهم ، كما ذكر محقق الكتاب .

والدعوة الإسلامية اليوم تمنع الحكام أن يراودوا الناس عن نفوسهم وأعراضهم وكبريائهم وشرفهم ، والمراودة الإعلامية والتربوية قائمة وفاعلة

---

(١٣) المجالسة ٣٤٦/١ .

وآتت نتائجها السيئة في جميع البلاد ، ويجتهد الدعاة في تقليلها وتوعية الناس ليحتاطوا ، فمن للأمة يُحذرها إذا غاب الدعاة ؟

وقد صار للدعاة في قصة الفهري وغيرها موعظة : أن يتمنوا الإصلاح الفوقي ، ويَسعَوا إليه ، فلربما تعصم رحمة الله صالحا من طعنة أو رصاصة ، **ولكن عليهم أن يحرصوا في الوقت نفسه على الإصلاح التحتي ..... إصلاح النفوس ، ثم التصاعد التدريجي نحو الأعلى ، في منهجية حضارية شاملة** .

إن الوجود الدعوي الشامل هو الذي يمنع الناس أن يُعطوا الدنية في دينهم ، ويعوضهم عن عبد الرحمن الفهري إن مات أو عزل ، وهو الذي ينهر الحكام أن يراودوا المستضعفين عن عقولهم وكبريائهم وشرفهم إن زين لهم الشيطان التمادي ..... !

دمعة الداعية غالية ، ولن يُفجرها طول سجن أو ضيق قيد ، ولكنها مخافة سوء المنقلب الأخروي . أو تدمع عينه لمستضعفٍ يروم الالتجاء إلى ركن دعوي يلوذ به ويحميه وينادي بحقوقه ، فيجد أن مَن عَرف قصة الحياة من شباب الإسلام وحازوا الوعي **قد استروحوا لعمل فردي و لم تدفعهم هِممهم لعمل جماعي وإسناد من بدأ وانتصب في الساحة ، فتستقبل المستضعَفَ وحشةٌ ..... ووحوش** .

ومن ثَمّ كان أكثر النقص افتضاحا : نقص القادرين على التمام . **وما هو بمنزلة التولي يوم الزحف ربما : قعود شاب ثقة من أهل الصلاة يبلغه هذا العلم ثم يؤخر انضمامه لجماعة الدعاة الذين تصدوا لمهمة المنع والإصلاح** .

الظالم يستطيع عبر الإعلام ومناهج الدراسة أن يمسخ عقول الجيل الجديد والقديم ، بأن يُلقنهم موازين غير موازين الإسلام والإيمان ، فيلتبس الأمر ، **وإذا كان الثقات يتوارون فإن الرويبضات ستنطق** ، واعوجاج الموازين هو أصل البلاء ، ولذلك كان غرس الموازين الصحيحة الشرعية هو أساس الإصلاح .

حين يغيب الحامي .... ينشط الحرامي .

وإذا تراجع أبناء بيوتات الشرف : قادَ النكرةُ الأصيلَ ، واستبدّ المخلط بالصافي ، وذلك هو الانحراف ، وهي القصة المكررة .

للحياة زمام ، فأيّ الأيادي تكون أسرع له ؟

وهناك وسخٌ دنيوي ، يجب أن يُغسل بالنور الإيماني .

وإنها اليوم **معركة التحدي الإسلامي الكبير** للعلمانية والهيمنة الأمريكية ، وسيكون لكل حرف ينطق به ناطق شأن عظيم عند الله وشأن في التاريخ ، ولكل صوتٍ في الانتخاب أو درهم في التمويل أو قدَم في صف الصلاة أو لوحة رمزية تُعلق أو كتاب في فقه الدعوة يُوزَّع شؤون كلها في الموازين الدنيوية والأخروية عظيمة ، فاحرص على سهمك في الصفقة الرابحة ، وإن لم تكن لحمل الثقيل مؤهلاً فكثِّر المسلمين بسوادك وأنفاسك على الأقل ، كما كان أمر الصحابي المؤذن ﷺ .

قال أنس بن مالك ﷺ : (رأيتُ يوم القادسية عبد الله بن أم مكتوم الأعمى وعليه درع يجر أطرافها ، وبيده راية سوداء ، فقيل له : أليس قد أنزل الله عذرك ؟ قال بلى ، ولكني أكثر سواد المسلمين بنفسي .) (١٤) .

والقصة كررها الشاعر الصرصري الأعمى مدّاح النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان يوم دخول هولاكو بغداد يُقاتل وحده ، يضرب بسيفه يميناً وشمالاً ، وهو أعمى لا يرى ، عساه يصيب كافرا ، ومات شهيداً في ذلك الموقف ، مُقبلاً غير مدبر ، يضرب الأمثال .

❑ ثم لي في المحراب سَكينة

هذه الأحاسيس هي التي تشير للدعاة إلى **وجوب التربية الدينية الأخلاقية العميقة ، التي تبتغي إنتاج الرجال ، بعدد كاف ، فيهم صفاء ، ولهم علم ، وقلوب حيّة ، ينتشرون في الأفق العريض ، يمارسون الإصلاح التحتي ، بالمفهوم الحضاري** .

❑ وأول دروسهم في ذلك يتلقونها مع التهجد ، في الأسحار والظلمات ، حين يرقد الغافلون .

المبتدأ : رسالة يتلقاها من مربيه أن : لاتكن كمن (غرّه الإمهال ، فجرَّ أذياله في الغفلة والإهمال .)

ثم رسالة ثانية أن :

(ويحك ....

هذا وقت عمارة المحراب .

---

(١٤) تفسير القرطبي ١٧١/٤ .

هذا زمان تلاوة الكتاب .
هذا أوان حضور الباب .) .
فإن أقبل سريعاً : علمه بيت علي بن الجهم رحمه الله :

وأفنيةُ الملوك مُحَجّباتٌ وبابُ اللهِ مبذولُ الفِناء

ويطلب منه ترديده ، واستشعار معناه العالي ، الذي يُزهّده بما في أيدي ملوك السلطة وملوك المال ، ويحبّب اليه أن يقف بباب الله مستعطفا ، فإنه واسع ، مبذول لكل فقير .

فإن رأى منه التثاقل : أغلظ له ، وأرسل له رسالة إنذار شديد ، أن : ياهذا : (لقد ربح القوم .. وأنت نائم ، وخبتَ ورجعوا بالغنائم ، بالليل راقد ..... وبالنهار هائم .) .

ياهذا : (لسان لايقرأ القرآن فهو ..... كليل .) .

فواظب على درس القران فإنه
يُلَيِّنُ قلباً قاسياً مثل جَلْمَدِ
وحافظ على فعل الفروض بوقتها
وخُذ بنصيبٍ في الدُجى من تهجّدِ [١٥] .

(ولعلك يا هذا تستطيل ركعتين تقرأ فيهما حزبين تقوم بهما لربك جل جلاله ، ولعلك تعجز عن مشي ميلٍ في قضاء حاجة مسلم وبين يديك هذا اليوم الطويل المديد والكرب العظيم الشديد الذي لا يقصر إلا على مَن أطال التعب لله ، ولا يسهل إلا على مَن تحمّل الشدائد في ذات الله ، ولعلك إن صليتهما ليلة عجزتَ عنهما أُخرى ، ولعلك إن مشيت يوماً في حاجة مسلم برمت من ذلك في يوم آخر ، وتعبت منه وكسلت عنه ، وربما وقفت لسماع حديث فارغ يكون تقريره أكثر من حزبٍ أو حزبين ، وربما مشيتَ في فضول الميلَ والميلين وأكثر من ذلك ، ولو تدبرت أمرك ونظرتَ فيما يُراد بك لسهل عليك من أمرك العسير وقرب عليك فيه البعيد ، فاعمل رحمك الله في أيام قصار وعمر قصير لأيام طوال وعمر طويل .)[١٦] .

مثل هذه المخاطبات : لطالما ربّت أجيالاً من الدعاة الأول ، وهذبت دواخلهم ، فاستنارت وجوههم ، وكانت الخلجاتُ ومعاني الأسحار زاد طريقهم

---

(١٥) عقود اللؤلؤ /٥٤ ، وكلمة القران في الشطر الأول بلا مد .
(١٦) العاقبة للإشبيلي /٢٠٣ .

الصعب الطويل ، فصبروا ، وثبتوا على درب الاستقامة العالي ، واطمأنت قلوبهم ، فأخبتوا إخباتا .....

أصل منهجهم التربوي : اتهام النفس ، واستعظام الذنب ، والتوبة منه ، و الإلحاح في الضراعة وطلب المغفرة .

وفي أذهانهم دوما ..... صورة تائبٍ يتهجد يُكثر أن يقول : **إلهي** ، **إلهي** .

- **إلهي** : ترى حالي وفقري وفاقتي
  وأنتَ مناجاتي الخفية تَسمعُ
- **إلهي** : فلا تقطع رجائي ولا تُزغْ
  فؤادي ، فلي في سَيْبِ جُودك مَطمعُ
- **إلهي** : أجرني من عذابك إنني
  أسيرٌ ذليلٌ خائفٌ لك أخضعُ
- **إلهي** : لئن جلَّتْ وجَمّتْ خطيئتي
  فعفوُك من ذنبي أجلُّ وأوسعُ [١٧] .

ثم ينعطف مع الشاعر العراقي ، نبيل الفرات ، وزين الدعاة : محمود آل جعفر ، فيتهجد ثانية ، ويلهج بيا إلهي في الليلة التالية ، لكن هذه المرة يكون أوعى في دعائه ، فلا يقتصر على مجرد الطمع في المغفرة ، وإنما يطلب المنهج القويم و " الدرب السوي " ، ويسأل التوفيق للدعاة " الساعين بالحسنى " ، وتلك هي **اللمسات الدعوية في العبادات القلبية** . . . . .

- فاهدنا دربا ً سويا ً . . . . **يا إلهي**
- واغتفر للذنب واصفح . . . . **يا إلهي**
- واكفنا شر خبيث . . . . **يا إلهي**
- وارحم الساعين بالحسنى . . . . . **يا إلهي**
- رب الهمهم رشاداً . . . . **يا إلهي** [١٨]

---

(١٧) عقود اللؤلؤ /٥٤ .
(١٨) ديوان حنين إلى الفجر /١٧١ .

□ لكن تربيتنا تختلف عن نمط الدروشة البالي ، **فإنا إذا جعلنا قلب المذنب يرتجف عبر تهجدات الأسحار في المسجد المغلق : نقلناه فوراً إلى البراري ، حيث الامتداد الفسيح ، والهدوء الواعظ ، ليتحاور مع نخبة الشباب الطاهر ،** في وادٍ أخضر ، أو فوق كثيب ، لينفتح له الرجاء ، ويتزود بالتفاؤل ، وتتوازن جوانب قلبه .

وليس يعرف جمال تلك السويعات غير ربيب الدعوات .

وكان عبد الملك بن مروان قد ذاق لذتها فقال :

(قد قضيتُ الوَطر من كلِّ شيء ، إلا من **محادثة الإخوان** في الليالي الزُهر ، على التلال العُفر .)[١٩] .

ويا لله ما أحلى محادثة الإخوان والبدر يرتفع .

من ذاق تولـه ، ثم لن يزال يشتاق إلى مزيد .

يحسّ الشاب بطعم خاص على التلال يفتقده بين الجدران .

ثم هو يطالعُ خلق الله وآيات الجمال .

ويعتزل المغريات والملهيات .

ويخلو لتدبرٍ وتفكر . . . .

وأهم من هذا نجاحه في أن يكتشف سبب التوفيق في الدنيا والآخرة ، الكامن في صحبة الأخيار ، ومجالسة أهل العفاف **واتخاذ الدعاة إلى الله إخوانا ، لا مثل فلان من جيرانه : عَرَفَ الدين فصلى وصام ، لكن لم ينتشل نفسه من رفقة السوء .**

قال ابن تيمية :

(وُرفع إلى عمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر ، وكان فيهم جليس لهم صائم ، فقال : ابدؤوا به في الجلد : ألم تسمع الله يقول : { فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ } ؟

فإذا كان هذا في المجالسة والعشرة العارضة حين فعلهم للمنكر يكون مُجالسهم مثلاً لهم ، فكيف بالعشرة الدائمة !)[٢٠] .

المصيبة أعظم حين ذاك لا شك ، ولذلك كان التحليق مع السرب أول إلهام يلهمه اللهُ الطيرَ ، ومن ظواهر الحياة يتعلم المؤمن .

---

(١٩) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ٢٧/١ .

(٢٠) مجموع الفتاوى ٣١٥/١٥ .

□ لكنا مرة ثانية لا ندعه يستطرد ، لئلا يركن إلى لذيذ الحديث ، وإنما نسحبه ثانية **إلى علم شرعي منهجي** ، ندعه يُثني له ركبته ، ونخبره بخطوات هذا العلم وضرائبه ، إذ الأمر جد ، وخطتنا في ذلك هي خطة سفيان الثوري التعليمية التي أوجزها فقال :

(أول العلم الاستماع ، ثم الإنصات ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر .)[21] .

وندع الشاب يكون في ذلك ماهرا .

فأول العلم : أن تستمع . وفي معناه : أن تقرأ ، وتفتش عن الحكمة والرأي الحسن ، **وقد أعفاك إحياء فقه الدعوة من نصف التعب اللازم** ، إذ انتدب أخ لك نفسه للمهمة ، وتوكلَ عنك ، فطاف واستقى وقلب الأوراق نيابة عنك ، ورجع لك بخبر يقين وزبدة وخلاصة ، فلا أقل من أن تحتفي بذلك وتبالغ في المطالعة .

وأما الإنصات فهو التأمل فيما تسمع وتقرأ ، تحاول أن تفجّر المعاني الكامنة بين السطور والألفاظ ، وأن تقيس وتقارن .

فإذا اكتشفت القواعد والمعادلات الدعوية فآنذاك تحفظها ، وتجعلها شعارا ، لترسخ في أعماقك .

وذاك يقود إلى عمل وانصباغ وتطبيق وابتدار ثم استبشار بمصالح يمنحها الإذعان لأمر الشارع .

فإذا استويت : يكون النشر ، والنذارة .

فتعتلي المنابر تذكر بالله ، وتزور النجباء من شباب عائلتك وعشيرتك الأقربين ، تخبرهم بالتطور الذي طرأ على حياتك وفهمك وفكرك ، وتطلب منهم النصرة ، وتعلنها لهم صريحة أن :

دينيَ الحنيفُ وربّيَ اللهُ
وشهادتي أنْ ليس إلا هُوْ
لا جاهَ إلا بطاعتِهِ
ولَنِعْمَ عُقبى الطاعةِ الجاهُ
أنا خاشعٌ لجلالِ قُدرتِهِ
متقلّبُ الجنبين أوّاهُ

---

(٢١) فتح الباري ٢٢٨/١ .

زَهَتِ القلوبُ بنورِ حكمتِهِ
وتَعَطَّرتْ بالذكرِ أفواهُ
إنْ تاهَ غيري بالزمانِ فلي
قلبٌ بذكرِ اللهِ تَيّاهُ (٢٢)

ثم تنزع المدينة تبشر بجماعة صارت العالمية دليل كفايتها ، فتنصح كل الناس أن يصافحوا دعاتها ، وتشتري عشر نسخ من المواعظ الدعوية وتأصيلات الاجتهاد فتوزعها ما بين إفريقيا السوداء وإندونيسيا الخضراء ، تهديها إلى أصحاب جمعتك وإياهم الدراسة أو السياحة ، **تطلب منهم موازاة جماعة اتخذت الاهتمام بقضايا الأمة هواية** .

ثم تصعد الربوة ، فتقسم بالله أن العلمانية راحلة ، وأن زحف الإسلام إلى تمام .

☐ وينبغي على الشاب النجيب أن يبذل جهده وأن يتجانس مع توجهات التربية الدعوية نحو الحزم مع الجديد الملتحق لتوه بمجتمع الدعاة ، بتعليمه بعض خبر العزيمة والجد والدأب ، والانفطام عن سعة الترخص وكثرة اللهو وطبيعة اللين والمشي المسترسل البطيء ، ولنا في ذلك شعار رفعه إمام الحرمين الجويني فقال : (**إنّ منعَ المبادي : أهونُ من قطع التمادي** .)(٢٣) .

أي أن منع وقوع المعاصي والأخطاء والسلبيات في بداية الشوط التربوي، عن طريق التشدد مع التلميذ ، أيسر من تأجيل تنبيهه وإرجاء تقويمه وتركه يتمادى في الخطأ بزعم وجوب الرفق مع المتربي الجديد ، لأن محاولة قطعه عن الاستمرار في أخلاقه المرجوحة ستكون أصعب من محاولة علاجها عند البداية ، إذ سيتحول بعضها إلى عادة تألفها النفس ربما .

وليست هذه دعوة إلى الإرهاق والتزمت واليبوسة ، فإن هذه الأساليب المعيبة قد تجاوزتها التربية الدعوية ، بما حصل لها من تجريب طويل وممارسات إبداعية والتزامات منهجية ، ولكنها طريقة في دفع الداعية سريعاً إلى النمط الجدي عرفنا جدواها جيلاً بعد جيل ، إذ الداعية في بداياته تغمره لذة كلما أتى واجبا ونفذه تنسيه ما فيه من ثقل التكليف ، وللمربي أن يستثمر هذا الشعور بالفرح الغامر الذي يسيطر على تلميذه فيدعه يركض ويطلب العلو ،

---

(٢٢) للبارودي في ديوانه /٧٠٥ .
(٢٣) الغياثي /١٨٤ .

فإن أحسَّ بفتور وملل : تركه وأرخى وانتظر هبوباً آخر لنسائم الإيمان والعزائم ، وليس كل ذلك مما يضاد طريقة التدرج ، لان التدرج إنما يوصف لمحرّج تسوقه سوقاً ، وهذا الإذن بالعلو يكون لمبادر مندفع تحركه لذة البداية وطرافة الإبداع .

❑ وأخاف من يوم الحساب ....

وكيف يكون التدرج ، وفيه إبطاء ، والأمر جد ، والحساب قريب ؟

لست تدري متى الموت ، وما أنت بضامن نفسك .

فكن على حذر ، وتخيّل يوم استيفاء الحقوق .....

(إذ وثب عليك خصماؤك ، وهجم عليك طالبوك ، وأحاطوا بك ومدوا أيديهم إليك ، فهذا يأخذ بيدك ، وهذا بشعرك ، وهذا بما أمكنه مما أذن الله تعالى أن يأخذه منك ....
فواحد يقول : يا رب هذا ضربني . وثان يقول : يا رب هذا شتمني . وثالث يقول : يا رب هذا اغتابني . وهذا احتقرني . هذا غصبني.هذا ظلمني حقي) .

(هذا عاملني فغشني ولم ينصحني . **هذا رآني مظلوماً وقدر على نصري فلم ينصرني** . هذا علم أني جائع ولم يطعمني . وكيف كانت معاملتك مع الناس وكيف كانت معاشرتك لهم ، فبينا أنت كذلك لا تدري ما تقول ولا تدري ما تعمل ولا أين تفر ولا كيف تتخلص وقد أبهتك الأمر وأدهشك الحال إذ سمعت نداء المنادي { الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } .

فلا تسل عن انخلاع قلبك واضطراب صدرك وقلة أنصارك وعدم الدافعين عنك ، فما شئت من ضلوع تتحرق ، وأكباد تتخرق ، وأحشاء تصطفق ، وهموم تنبعث عليك وتتدفق .

وقد علمت أن الأداء عن نفسك هناك ليس بالدنيا ، وإنما هي حسناتك التي تعبت فيها في الدنيا إن كانت قد قُبلت منك تعطى لخصمائك وتدفع لطالبيك ، وإن لم تكن لك حسنات : أخذ من سيئاتهم فحُملت عليك و ُألقيت على كاهلك ، ولعلك قد جرّأت مسلماً على معصية ، أو حملته على ارتكاب خطية ، أو ُكنت له سبباً في ترك سُنّة واعتقاد بدعة ، فيجمع ذلك كله لك ويُناط بك ويُحمل على ظهرك .

قال الله تبارك وتعالى : { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ } .

فانظر وتدبّر كيف يكون حالك وقد أُضيفت إلى سيئاتك سيئات أُخر ، فاجتمعت عليك السيئات ، وأحاطت بك الخطيئات ، وانكسر ظهرك .)(٢٤) .

وهذه أحوال مخيفة ، ليس منها مهرب ، إلا أن تلح في الاستغفار والإنابة ، والإطّراح بين يدي الله عز وجل ، تسأل التجاوز ، وتكرر مرة ومرتين كل يوم :

إلهي : تحملنا ذنوبا عظيمةً

أسأنا وقصّرنا ، وجُودُك أعظمُ

سترنا معاصينا عن الخلقِ جملةً

وأنتَ ترانا ، ثم تعفو وترحمُ

لك الحمدُ : عاملتنا بما أنتَ أهلهُ

وسامح وسلّمنا ، فأنت المسلّمُ (٢٥) .

تقولها مع الخشية والانكسار ....

ثم مع تمام الضراعة والتوسل..........

فإذا نزلت منك دمعة......

كان نزولها إذناً لك أن تأمل وترجو وتطمع ......

فبادر إلى رفدها . . . . . بدمعتين . . . . ۞

---

(٢٤) العاقبة للأشبيلي /٢١٨ .

(٢٥) عقود اللؤلؤ /٨٢ .